الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية والتعذيب إبان الثورة الجزائرية 1954–1962

الدكتور/ عسال نور الدين.
قسم العلوم الإنسانية.
جامعة سيدي بلعباس – الجزائر

Abstract :

Torture was practiced during the Algerian war on the population by the colonial forces in the proportions which that the historians would concerns hundreds of thousands of Algerians ,which pushes men of cult to denounce the colonial crimes, and asked those responsible of his acts must be sued for crimes against humanity.catholic christians of algerian expressed their solidarity for the struggle of the algerians and who denounced the colonial crimes ,these christian men contributed by the debate that aroused within the christian community shattered the theological and political tabulations that existed in the church of to remove it from the colinization.

مقدمة:

حاولت الدعاية الاستعمارية الفرنسية أن توظف الوجود الديني المسيحي لخدمة جهودها في حشد الرأي العام الفرنسي والغربي أملا في القضاء على الثورة الجزائرية وإبقاء الجزائر فرنسية، من خلال التأكيد على أن الصراع هو بين القوى التي تمثل مبادئ التسامح والإخاء والعدل، وقوى التعصب الديني الحاقد على المسيحية التي لا تمثل تهديدا لفرنسا فقط بل لكل العالم المسيحي.

لم تبق الكنيسة بمنأى عما يجري في الجزائر من جرائم الجيش الفرنسي بالجزائري باسم المسيحية الأمر الذي دفعها إلى إبداء موقفها، ويمكن القول أن موقف رجال الدين المسيحيين تميز بالتباين، ليس فقط بسبب خلفيتهم المسيحية، وإنما لاختلاف معتقداتهم السياسية، فقد انقسمت بين مؤيد ومعارض للسياسة الاستعمارية.

كانت معظم مواقف القساوسة الفرنسيين سلبية تجاه القضية الجزائرية لاعتبارات وطنية، وباسم هذه الوطنية دعت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية إلى احترام السلطات الشرعية وخدمة البلد في أي مكان تتوجه إليه الحكومة، وذلك ردا على رفض الشباب الفرنسي في ربيع 1955أداء الخدمة العسكرية بالجزائر وتبنت الأسقفية الفرنسية الأطروحات الاستعمارية،معتبرة أن المتمردين هم من أعوان الدولة، وليسوا مقاومين، وإنما قتلة بلا رحمة ولا ضمير موجهين من قبل الخارج، وأن القيم المسيحية أصبحت مهددة ولا يوجد حرب في الجزائر، وأن الجيش يقوم بعمل لخلق شروط العودة إلى السلم فالتهدئة ليست حربا والمتمردين ينشرون الخوف والرعب، ويرتكبون أبشع الجرائم في حق المدنيين [1].

مثل هذا الاتجاه،" الكاردينال فولتان " Voltaine الذي قدم للجزائر سنة 1955 بمناسبة الاحتفالات بعيد القديسين، وبإلحاح من قادة الجيش، حيث كرس نشاطه بتنظيم الاحتفالات الدينية وإلقاء المواعظ ولقاء المرشدين العسكريين، والتقى بالجنرال " شال "و "ماسو "، أين قام بزيارة طويلة لمقر اللفيف الأجنبي، وتوجه إلى المرتزقة وأثنى على بطولاتهم وشجاعتهم.

وفي هذا الإطار حث الجنرال " ماسو "باستعمال التعذيب،مشبها الثوار الجزائريين بالمتوحشين الذين يهددون فرنسا، فلا بد من اعتقالهم ومنعهم، وهي مهمة أساسية لعمل

الجيش، فأوامر التهدئة التي يتلقاها الجنود هي أوامر تأتي من حكومة شرعية منتخبة من طرف الأغلبية وإنها ليست ضد المسيحية،إنما تهدف قبل كل شيء إلى نشر السلم [2].

ويذهب في نفس الاتجاه " أب لويس "Abbé louis العامل بالجيش الفرنسي بألمانيا، حيث كان ينصح كل جندي فرنسي متوجه إلى الجزائر: " إن الأمة ترسلكم إلى الجزائر من أجل إعادة النظام، قم بواجب الجندي، إنها إرادة الله"[3]،أما الأب دولارو Delarue فقد قدم توجيهات للجنرال ماسو على أن التعذيب وسيلة فعالة حتى لو كانت غير عادية، فالمتهم لا يلوم إلا نفسه، فهو لا يتكلم وحتى يقتنع بضرورة التكلم وفي هذه الظروف الاستثنائية فلا بد أن يبقى التعذيب مهمة جليلة،بينما يرى" شابولى Chaboly "Eveque D'angersإنه من الواجب المؤكد، لحماية المجتمع من تكالب المتطرفين، يجب إلحاق الهزيمة ونزع السلاح بكل الوسائل المسموح بها في الحرب[4].

وفي 21 أفريل 1956 نشرت جريدة" لوموند "مقالا موسوم" من أجل إنقاذ وإبقاء الجزائر فرنسية"، موقع من قبل" ألبار بيات"Albert Piate،" الكاردينال سالياج "Saliage،جورج دوهمال"Georges Duhmal،" بول ريغات "Paul Regat، ورد فيه أن بلد حقوق الإنسان يستطيع أن يمنح لسكان الجزائريين سبيل إنساني نحو المستقبل، فوجود القوة الفرنسية هي من أجل حماية الآخرين من الوحشية، وعلى هذه القوة أن تستمر، حتى تحقق النصر النهائي[5].

فإذا كان أغلب أعضاء الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية قد وقفوا مؤيدين خيارات الحكومات الفرنسية التي طغى عليها العنف والقمع كوسيلة للحل المشكل الجزائري فهناك عناصر ذات وزن ديني وقفت موقفا شجاعا ومشرفا بفعل تأثيرات قناعتها الفكرية وخلفياتها

الدينية،فأدانت النظام الاستعماري وما نتج عنه من انتهاك لحقوق الإنسان الأساسية ونددت بالعنف،وطالبت بالالتزام بالأخلاقيات الحربية طبقا لقيم المسيحية، وارتفعت الأصوات التي تتبنى المبدأ الأساسي للقانون الطبيعي المتمثل في الكرامة الإنسانية بغض النظر عن عقيدتهم وانتمائهم، ومن أبرز هؤلاء ليون اتيان دوفال Léon étyand duval رئيس أساقفة مدينة قسنطينة الذي كان الشخصية الدينية الأكثر شجاعة خلال حرب التحرير الجزائرية،بفعل وزنه الشخصي،فقد قال:" ابدأوا بالحب، ليس فقط حب أولئك الذين يقاسمونكم المعتقد، وإنما الجميع، مسلمين، يهود، ما داموا عبادا لله "[6].

ونددت بكل أشكال العنف التي راح ضحيتها أشخاص مسالمون، فهو عنف إجرامي مهما كان فاعلوه،كما رفض اللجوء إلى التعذيب على أساس أنه يمكن الحصول على معلوما تتسمح بضمان الأمن وتقليل الخسائر البشرية،وفي 17 جانفي 1955 نشر بيانا طالب فيه باحترام دقيق للقوانين خلال اعتقال واستجواب المتهمين، وأكد أن التحقيق القضائي يحرم التعذيب الجسدي والنفسي مع بقاء الخطوات الأولى للعقاب والاعتقال في حدود القضاء، وكان يذكر دائما أن الحق الإنساني في الحياة لا يتوافق مع ممارسة التعذيب والإعدام بلا محاكمة.هذا الموقف جعل عناصر من الجيش الفرنسي يلقبونه بـــ "محمد دوفال، الفلاق الصغير"[7].

أدركت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، حجم الكارثة التي تعيشها الجزائر، والمأزق الذي وقعت فيه فرنسا الاستعمارية، التي ابتعدت عن مبادئ الإنجيل الحقيقية، فهل كان بمقدورها أن تتجاوز الخطاب وإخراج أسرار هذه الحرب؟ وهل سيبقى الحديث عن هذا الموضوع حبيس الجدران؟

لقد عمل العديد من رجال الدين على نشر الأسرار حول حرب الجزائر، فأغلبيتهم تنتمي إلى مهمة فرنساMission de France، تحت إشراف الكاردينال لينار Lienart الذي ذكر أنه ذهب إلى الجزائر اعتقادا أنه سيجد القدرة لتحقيق مثاليته، وهي الإنصات للآخرين، مثل القس فرانسوا بوسو Francois boussot ، أبي روبار دفيزي L'abbé robert davegiesوأبي برتازL'abbé barthez، L'abbé cartard ، L'abbé bernard boudareque، الذين كان لهم دور كبير في تقديم يد المساعدة للمهاجرين المغاربة بفرنسا أثناء حرب التحرير[8] .

وفي 15 سبتمبر 1955 كتب القساوسة الفرنسيون رسالة جماعية تطرقت إلى مشاكل التهدئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المطروحة في الجزائر، وأن القتل والعمليات ضد حياة الإنسان وممتلكاته إنما هي جرائم يرفضها العقل،و أن الدفاع عن النفس حق مشروع في حالة الاعتداء، لكن لا يسمح ذلك للسلطات من أجل ضمان الأمن العام الانتقام[9].

وعبر أبي برنغار L'abbé berenguer على أن الجزائر تريد الحرية، وأن تسير نفسها بنفسها فلا بد من الاعتراف بذلك، وكان من المؤيدين للحوار والتفاوض مع جبهة التحرير الوطني حيث قال: رفعنا شعارات فارغة وجمل بعيدة عن الواقع، لقد تسببنا في كثير من الآلام، الجزائر أرض فرنسية؟ الجزائر هي الجزائر...ليس لدينا أي وجود هنا، ومن الأحسن الذهاب، فالفرنسي لا يتصور نفسه سوى سيدا...إذا أدرنا ظهورنا للإنجيل، كيف يمكن بناء مجتمع مسيحي أوربي؟ وكيف يسمح المسيح بذلك؟"[10].

دفعت الفظائع الوحشية التي ارتكبها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري بمجمع الأساقفة والكرادلة إلى الاجتماع في 14 مارس 1957 للتنديد بهذه الجرائم،معتبرين هذا

التزاع قد يؤدي إلى اليأس ويترتب عنه نتائج خطيرة،بإمكانه عرقلة كل عمل لصالح حل عادل، فعلى كل واحد أن يتذكر، بأن استعمال الشر غير مسموح به، حتى لو كان يقصد به خدمة مبادئ الخير، مجددين دعاويهم إلى الله على أمل أن يستقر السلام الحقيقي بالجزائر على قواعد العدل[11]،كما نددت الجمعية الطلابية للكاثوليك الجزائرية بالطرق البوليسية المستعملة من طرف الجيش الفرنسي من أجل الحصول على المعلومات من المعتقلين الجزائريين بحجة حماية الأشخاص،وفي 14 مارس 1957 نشرت جمعية الأساقفة والكرادلة إعلانا تؤكد فيه رفضها المطلق للإجراءات غير الإنسانية التي تمارسها قوات الأمن الفرنسية.

وفي تصريح لـــ 21 من الكرادلة والأساقفة، نددوا فيه بالوسائل المستعملة في حرب الجزائر:"لا يمكن للكراهية أن تجد لها مكانا في قلب مؤمن ولا يمكن أن تكون مبررا، لقمع ذهب ضحيته أبرياء،فهذه الممارسات الشنيعة بإمكانها أن تجد عائقا دائما، أمام مستقبل الجزائر هذه الممارسات التي اقترفها أشخاص من المفروض حماية ممتلكاتهم، واحترام كرامة الإنسان والامتناع عن أي تجاوز، ينافي في الحقوق الطبيعية، وقوانين الله "[12].

بعد اكتشاف حقيقة التعذيب الممارس من طرف قوات الأمن الفرنسية خلال معركة الجزائر الأمر الذي دفع بالكثير إلى رفض اللامبالاة وضرورة إظهار الحقيقة، والوقوف ضد هذه الممارسات ونشر قيم التسامح والحرية، الأمر الذي أدى إلى ظهور شبكة واسعة لدعم جبهة التحرير الوطني المعروفة بـــ "شبكة جونسون"،التي اندمجت مع شبكة رجال الدين المسيحيين " لمهمة فرنسا "سنة1957 ، وقد عبر روبار دافيزي " Robert davegies أحد أعضاء هذه الشبكة بعد فراره من فرنسا سنة1958 ، قائلا :"تولدت لدي الكراهية بسبب هذا الطفل، المرأة، الشيخ، عذبوا، قتلوا، لأنهم ينتمون إلى شعب حرم عليه أن يكون حرا"[13].

أرادت جبهة التحرير الوطني إظهار فكرتي المساواة بين الأفراد، فق أكدت أن المسيحيين والمسلمين مدعوون معا لبناء المستقبل،وفي رسالة موجهة إلى البابا بولس الثاني عشر،أشارت فيها أن المسيحية والإسلام يمكن أن يتعايشا في نفس الأرض،ويتعاونا سلميا في المجالين المادي والأخلاقي وتجسدت هذه الأفكار من خلال مواثيقها، انطلاقا من بيان أول نوفمبر، الذي نص على احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني، إلى ميثاق الصومام الذي أكد على أن الثورة هي كفاح وطني يعتمد على أساس قومي وسياسي واجتماعي.

كان لهذه التوضيحات المطمئنة للرأي العام الفرنسي عامة ولرجال الدين المسيحيين الفرنسيين خاصة صدى لدى الكثير منهم، ففي 07 مارس1958 ،عقدت مجموعة الكرادلة والأساقفة اجتماعا عبروا فيه على أن كل مسيحي يجب أن يحب وطنه بدون كره للشعوب الأخرى، وتقديم لهم يد المساعد، .وفي 25 من نفس الشهر وجه Evêques الجزائر نداء يطالب فيه بضرورة التخلي عن الطرق التي تنافي أوامر الله، وإيجاد حل مرضي مبني على التفاوض وعدم استخدام الحلول القمعية[14].

أدى هذا الموقف إلى حدوث انقسامات في داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، فهناك العديد من أعضائها كانوا من دعاة الجزائر فرنسية،نتج عنه وقوع بعض المناوشات أمام أبواب الكنيسة،ليتدخل الكاردينال جارلي Gerlier الذي طلب بأن يكون للمسيحيين بعد نظرا وعدم الشك في وطنية طرف على طرف آخر،فكان من الطبيعي أن بعض رجال الدين عبروا عن رفضهم هذا الموقف، لكن لا أحد له الحق في محاكمتهم ما دام أن الكنيسة لم تفعل ذلك[15]،كما اتهم علنا في 25 أكتوبر 1958 بعض من رجال الشرطة بلجوئهم إلى

العنف،والمساس بالكرامة الإنسانية اتجاه المسلمين من أجل إرغامهم على الاعتراف بمساندة بعض "الآباء" لجبهة التحرير الوطني،وفي نفس الوقت بعث سبعة قساوسة من باريس برسالة صداقة إلى صحيفة المجاهد جاء فيها : "إن كفاحكم عادل، ان كفاحكم سيكلل بالنصر"[16].

وفي مايو 1959 قام MGR Rodhain بزيارة للجزائر، وعندما عاد إلى فرنسا استدعى الصحافة حيث قدم لهم عرضا مفصلا عن ما شاهده في المحتشدات، وكتب تقريرا أشار فيه أن أغلبية المسلمين يعانون من الجوع وأن النجدة الكاثوليكية ليست نادمة على قول الحقيقة،وقدم عدة ملاحظات: أولها أن الأطفال يعانون من الجوع، والثانية أن المعونات الشخصية لا يمكن لها أن تحل المشكل فهي مسؤولية السلطات ودورها قول الحقيقة، والثالثة على السلطات أن تحل مشكل سوء التغذية لحوالي مليون شخص،ثم عرض هذه النتائج على السلطات المنية والعسكرية للعمالات الثلاث وبعد هذه الاعترافات قام الكاردينال فلتان Feltin ، والباستور بوريغي Boegrier بتوجيه نداء في جوان 1959، لوضع حد لهذه المحتشدات[17].

وفي رسالة لجمعية العمل المسيحية إلى رئيس بلدية" ترنباش Trimbach "بفرنسا استنكرت فيها تسمية أحد الشوارع باسم الجنرال بيجار الذي اعترف وبرر استعمال التعذيب،فالتعذيب عمل غير إنساني،وخطرا على الكرامة الإنسانية، وغير مقبول رسميا، ومنافي لقوانين الحقوق الدولية[18].

كانت السلطات الفرنسية تعتبر كل من تبنى مواقف ضد السياسة الفرنسية في الجزائر،خائنا لوطنه بينما اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية إن كل مسيحي يدعو إلى احترام حقوق الآخرين ليس خائنا ولا يحط من معنويات الجيش أو الأمة، فالمسيحي الذي يندد

ويرفض الطرق أللإنسانية فهو وفي لوطنه ولقيم دينه، ولا يمكن استعمال وسائل سيئة حتى وإن كانت القضية نبيلة، فقد كتب خمسة وثلاثون (35) من رجال الدين الفرنسيين في 05 مارس 1959رسالة جاء فيها:"إن الحرب تستعمل فيها وسائل يرفضها ضميرنا، فعمليات الاستنطاق تتم بطرق نعتبرها تعذيبا...ويتم طمس الحقيقة بتقارير رسمية... القتل والضرب أصبح لعبة عادية ...فالخصم محتقر ،واحترام الحياة المعنى الأساسي للعدالة اختفى"[19].

أثارت هذه الرسالة بعد نشرها في الجرائد الكثير من ردود الفعل التي اختلفت في طبيعتها فالبعض تأسف لنشرها، والبعض الآخر طالب برد قوي، غير أن Mgr Badre ندد بنشر هذه الرسالة والحملة الإعلامية التي حظيت بها، فمهمة الكنيسة بالنسبة إليه،هي المساعدة على تأدية الواجب الوطني، ولاشك أن" الفراد برانقي " Alfred Beranguer هو الوحيد من بين كهنة الجزائر اختار معسكره علنا وناضل مع جبهة التحرير الوطني.

ولقد كلف" برانقي "بمساعدة مجموعة من المسلمين والمسيحيين سنة 1961 بكتابة تقرير للحكومة المؤقتة التي بعثت برسالة إلى قساوسة الجزائر أكدت على تعهد الجزائر المستقلة بضمان الحرية واحترام الكاثوليكية، وإن الكنيسة لها مكانتها في الجزائر،كما أدانت أسقفية الجزائر أساليب المنظمة السريةOAS واعتبرها نازية، وبإمكانها أن تقود الجزائر إلى مأساة حقيقية.

وإذا كان التعذيب الذي يستخدم ضد الشعب الجزائري برر على أنه الوسيلة الأنجع للحصول على المعلومات وتتيح ضمان الأمن وحماية الأرواح وتقليل الخسائر البشرية، فإن رجال الدين المسيحيين رفضوا هذا الطرح، حيث كتب قس الجزائر العاصمة :"مرة أخرى أقول لإخواني،أن بناء المجتمع الإنساني هي احترام الإنسان، وإهانته هي إهانة قدرة الله"[20].

لقد أثارت هذه المواقف لبعض رجال الدين الفرنسيين الرافضة لسياسة التعذيب الاستعمارية حفيظة السلطات الفرنسية التي عملت كل ما في وسعها لإسكات هذه الأصوات، لما لها من وزن محلي ودولي، و كإجراء عقابي قامت بنفي "برانقي " من الجزائر سنة 1956،ليصبح فيما بعد ممثلا للهلال الأحمر الجزائري بأمريكا اللاتينية، ونفس المصير تلقاه الآباء " جوزيف كارلانJoseph kerlan ، بيار مامانتPière mamet ، أغروس Augros، الذين تم طردهم من سوق أهراس واعتقل " أبي برنارد بودراسك L'abbé bernard boudouresques سنة 1958 وقدم للمحاكمة[21].

كما أشارت جريدة المجاهد أن العديد من الآباء الفرنسيين اعتقلوا بباريس وليون بتهمة مساعدة وطنيين جزائريين موجودين بفرنسا،وفي 12-11 مارس 1958 تم محاكمة " الباستور ماتيو Mattiot وفرنسين رابين "Francine rapine بتهمة التعاون مع جبهة التحرير الوطني، كما أرسلت المحكمة مذكرة اعتقال ضد " أبي روبار دافيزي "بسبب مواقفه[22].

كان هدف السلطات الاستعمارية من وراء هذه الحملة ضد رجال الدين الأوفياء لمبادئ الإنجيل أن يزرعوا الشك في الوسط المسيحي وقطع روابط الإنسانية التي تربط بين الشعبين الجزائري والفرنسي وإسكات كل صوت إنسان يؤمن بالمبادئ الإنسانية التي هي جزء لا يتجزأ من حقوق الإنسان التي نادت بها كل المواثيق العالمية .

الهوامش:

1- بورغدة (رمضان " الثورة الجزائرية ورجال الدين المسيحيين " مجلة القيم الفكرية والإنسانية في الثورة الجزائرية 1954-1962 ، مخبر الدراسات التاريخية والإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري بقسنطينة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2003 ، ص ص121-136.

2-Benkhadda benyoucef, Alger capital de la résistance 1956-1957. éditions, houma, 2002,p 10.
3-Idem.
4 - Stora Benjamin , Ils venaient d'Algérie, l'immigration Algérienne en France 1912-1992,éditions librairie Arkhtene fayard, 1992, P58.
5- Ibid P61.
6- بورغدة (رمضان)،مرجع سابق، ص ص121–136.
El Watan Numéro spécial, 31 octobre 2004. 7-
8- Stora (benjamin), La gangrène et l'oubli, mémoire de la guerre d'Algérie, Editions la découverte, paris, 1992, p 60.
9- Haourt (pièrre), L'Attitude de l'église dans la guerre d'Algérie 1954-1962, éditions le livre Africain, 1960,p 15.
10- Ibid, pp 44-45.
11- المقاومة، العدد10 ، 25 مارس1957 .
Haourt (pierre), op cit, P46.12-
13- Stora (benjamin).La gangrène… op cit, p 64.
14- Haourt (pierre). op cit, pp 54-55.
15- Ibid P61.
16- El moudjahid N°38, 17 Mars 1959.
17- Haourt (pierre), op cit,p80.
18- Nadjadi (Boualem), les tortionnaires 1830-1962.A.N.E.D , 2001. p240.
19- Haourt (pierre). op cit, pp68-69.
20-Ibid. p 81.
21- Benkhadda (Benyoucef), op cit, p104.
22- El moudjahid, n°